صوت الضمير

قصة للأديب الألماني : ف . فون لسبورج

تعريب وتلخيص : أنور السادات

هذه القصة قام بتعريبها وتلخيصها البوزباشي « محمد أنور السادات » من أحد أعمال الأديب الألماني ف . فون لسبورج عام ١٩٤٨ ، وذلك على الرغم من حبسه خلف الأسوار في تلك الفترة العصيبة من تاريخ حياته وتاريخ مصر في الوقت نفسه ، ولكن مرارة الاعتقال والسجن لم تقتل فيه حسه للثقافة والفن والفكر والأدب ، ونحن ننشر اليوم لأول مرة هذه القصة لنرى أنها لم تكن مجرد عملية ترجمة وتلخيص ، بل كانت دليلا واضحا على الأسلوب الأدبي الممتع الذي تميز به قلم الأديب المفكر « أنور السادات » ، والفكر الإنساني الشامل الذي برز بعد ذلك في قيادته لأمتنا .

تسللت خيوط الشمس الذهبية من خلف الجبال لتبسط في جلال وإشراق على تلك القرية الألمانية الوادعة معلنة طلوع يوم جديد . وكان إشراق الشمس في هذا المكان ندياً ، فلذلك لم يلبث السكان أن خرجوا في مواكب عادية : هذا الى عمله وذاك الى مصلحة يقضيها . وكان الكل مبتهجا منتعشا ، فقد امتزج نسيم البكور الندي بنور الشمس الدافيء .

وفي ركن من أركان القرية ، خرج الحداد المحبوب من منزله يستقبل يومه في أمل ونشاط ، فكان السكان يحترمونه (تعويضه) ، ويتبركون بالحديث إليه عن مختلف الأعمال والأزمان ، ويلجأون اليه طلبا للنصيحة والمشورة ، فقد اشتهر هذا العجوز بطيبة القلب ، وحسن المعاملة ، فأحبه الجميع و . . . وأحبهم .

خرج الحداد من داره رافعا رأسه الى السماء ، وما أن

اخيك المتوفى .. فتريد ان تجيش لي جيشا من الاطفال .. اما تدري مايتطلبه تعليمهم وتنشئتهم ..؟

ـ تبا للدهر حين يقسو .. الا يبهجك ياعزيزتي ان نوقد الدفء والنور في هذه القلوب البريئة الطاهرة ؟..

ـ يبهجني ان تخرج الآن الى عملك، فتعداد العائلة بفضل بلاهتك في تضخم .

ـ لاتقلقي .. فساعلم ابني وهذا الربيب مهنتي طالما يشبان .. وسيكونان رجلين يضيئان شيخوختنا .. وعليك انت ان تتولي امر الفتاة .. والله يرعانا جميعا ..

خرج الحداد الى دكانه ، بينما انساب الاطفال الثلاثة في فناء الدار يلهون ، ويلعبون . انهما فارسان وفتاة .

ويتعاقب الليل والنهار ، ويشب الاطفال الثلاثة الى مرحلة الحداثة فينصرف الولدان الى الدكان لتعلم حرفة الأب ، وراحت البنت تعمل تحت اشراف الام في ادارة شئون البيت .

لم يكن جمع العائلة يكتمل الا على مائدة العشاء ، وكان الناظر الى الولدين يلمح سرا كبيرا يعتمل في صدر كل منهما كما يلمح ايضا حرصا على اخفاء هذا السر بحيث لم يشعر احد من افراد الاسرة بما يدور في مكنون احدهما . فالربيبة اليافعة كانت قد نمت وتفتحت في اشراق كأزهار الربيع، والفتيان في هذه السن عبيد العاطفة .. لا تحكمهم عقولهم بقدر ماتحكمهم عواطفهم .

وفي يوم من ايام يناير الباردة جلس الولدان الى الحداد العجوز يطلبان منه ان يأذن لهما في الخروج الى الحياة مكافحين ..

ـ ولكن يعز علي وانا في هذه السن ان تتركاني اسير وحدي في موكب الحياة .

ـ انك تعلم أن في السفر خبرة وتجربة ، فلما نتاح لن يعيش في محيط ضيق ، وكلما ازددنا علما ، زاد ايماننا .. فاسمح لنا لنعد اليك ظافرين ..

ـ انني مع حزني لفراقكما لا ارى الا رأيكما .. فاحذرا في سفركما رفيق السوء .. واكبحا النفس فانها امارة بالسوء .. والله يبارك ترحالكما .

***

وفي الطريق اتفقا على أن يلتقيا بعد ثلاث سنوات في حانة تقع على الطريق العام بعيدا عن القرية ليدخلاها سويا .. وانصرف كل الى سبيله يحمل سره في قلبه ، ويطوى نفسه على آمال .

وفي القرية ، جلس الحداد العجوز يتلقى رسائلهما في شوق ونشوة .. ولم يبخل عليهما يوما بنصيحة أو توجيه وظل ابدا يرقب يوم العودة .

وطوى الزمن ثلاث سنوات كاملة من دورته . واستقبلت الحانة ولديها اللذين جلسا يتبادلان اخبارهما . قال الربيب

ـ سافرت وتنقلت ، وما أعذب الترحال .. كنت أقضي النهار عاملا كادحا ، وما يجن الليل حتى أجدد النفس حسبما يوحي المكان . ففي القرى الصغيرة كنت امل الليل في تلك الحانات الرطبة الضيقة ، ولما سكنت المدن الكبيرة رأيت الليل بوجهه الحقيقي .. هناك في بيوت اللهو يرى الانسان متعة الدنيا ونعيم الحياة .. وصدقني يا أخي ما أسخف العمر اذا لم يرتشف الانسان رحيق اللذات .

وقال ابن الحداد :

ـ والله يا أخي ان في السفر والتنقل متعة ولذة . لقد كنت أستقبل يومي مع الشمس هاتفا في مرح : « هاهو يوم جديد » .. وكنت اراه جديدا في كل شيء .. كم رقص قلبي طربا للطبيعة في حبـورها وتنوعها . وكم استعذبت حديث الناس ولهجاتهم في مختلف البقاع .. لقد رأيت في كل مكان شيئا فيه آية جديدة على قوة الخالق وقدرته، وحين امتلأت نفسي بالروعة والايمان، تعلمت الحب .. الحب الحقيقي . حب الله ، وحب الناس ، وحب كل شيء .

وسبح ابن الحداد في سرحة طويلة عكست على وجهه بشرا وبهجة ، فسأله الربيب في برم وملل :

ـ الم يكتب اليك العجوز حديثا ؟

فاجاب الفتى وعلى وجهه بريق من الفوز والسعادة :

ـ نعم ، لقد كتب الي خطابا شهيا الى نفسي ، وحبيبا الى روحي .. أتدري ماهو ؟.. لقد وعدني بأختنا الربيبة زوجة لي .. ووعدني ايضا بان يتنازل لي عن تجارته ومكانته .

وقع الخبر على فتانا الربيب وقع الصاعقة .. والهبت شياطين الغيرة في قلبه نارا متأججة من الحقد والكراهية ، ووسوست له نفسه بكيد عظيم .. ولكنه كتم امره .. وقاما ليقفلا الى قريتهما راجعين .

وفي الطريق ، وبقرب التلال التي تشرف على طريق « زيتاور » الكبير .. يهمس الشيطان في اذن الربيب بغوايته ، وتنطلق أفاعي الحقد تنفث سمها في دمه وتغطي عينيه بغشاوة محرقة مهلكة .. الربيبة . الثروة .

ويستبد الشر بنفسه الخبيثة ، فينهال على رفيقه بعصاه .. ولا يفيق من سورته الجنونية الا وضحيته جثة هامدة .

***

تمت هذه الفعلة الشائنة في جنح الليل البهيم ، وحين رأى الربيب ضحيته وقد تحول الى كومة من اللحم ، تفاعلت

فى نفسه المتينة عوامل الحرص على الحياة ، فاسرع الى أقرب حفرة وواري الجثة فى أتفان مخفيا بذلك معالم جريمته ، وكانت الساعة عندئذ تدق معلنة الثانية عشرة .

وفى اليوم التالى .. اصبح عليه الصباح وهو يدخل القرية .. واتجه الى المنزل فى هدوء وسكون كأن لم يحدث امس امر فى الظلام .. واقبل عليه الحداد العجوز فى شوق ولهفة يقبله وهو يبكى فرحا :

ـ اهلا بالابن الكريم فى وطنه وبين اهله .. كيف حال اخيك ؟

وانهالت عليه القبلات والاسئلة فى سيل لاينقطع. واخذ فى سرور مفتعل، يروى اخبار رحلته.. اما الابن الغائب فقد زعم أنه لايعرف عنه شيئا !

وانتظر الحداد سنة كاملة دون أن تصله أخبار من ذلك الابن الغائب . عندئذ تبدد امله فى أنه لايزال على قيد الحياة .

واقيم مأتم الغائب .

ولما هد الحزن كيان الحداد العجوز واراد أن يستريح دعا فتانا الربيب فتنازل له عن تجارته ؛ وزوجه من الربيبة الشابة

صوت الضمير

ومرت على زمن الحادث ثلاثون سنة .

وصار القاتل رجلا ؛ وراح يزاول عمله فى مثابرة وجد ، ويرتع فى منزله فى بحبوحة من العيش وهناء مع زوجته .

وفى يوم من أيام الشتاء الباردة كان الثلج يتساقط فى مشهد جميل ، بينما النجوم تسطع فى سماء ديسمبر القاتمة ، فكر فى أن يذهب الى القداس فى الكنيسة القريبة

وفى الطريق ، بدأت ساعة المدينة تدق معلنة الوقت .. وانصت الربيب.. كم مرة تدق.. اثنتى عشرةمرة..انه لابد منتصف الليل .

لا .. لابد وان هناك خطا فى شىء. بالله ما هذهالأطياف.

وعاد يجرى مسرعا الى منزله وكأنه قد أصابه مس من الشيطان ، أن أشباح جريمته التى ارتكبها قبل ثلاثين سنة وفى نفس هذه الساعة .. الثانية عشرة..تطارده وتلاحقه.

وفى أنين مكتوم .. وسيل غزير من العرق .. استلقى القاتل النديم على سريره ، واستيقظ فى صباح اليوم التالى على مشهد زاد من فزعه .. فقد وجد بوليس الحاكم يحاصر منزله .. ودق الباب دقات مفزعة .. وفى لهجة حازمة ، سمع من يقول :

ـ هل السيد هنا ؟

دار رأس السيد فى عنف ، وأجاب فى ذهول :

ـ نعم .. ولكننى لم اقتل .. لم اقتل..آه.. لا..

ودخل رجال الشرطة ، والقوا القبض على السيد الربيب وقادوه الى سراى الحاكم .

وفىغرفة الحبس استبد الهلع بنفس الرجل، وامتلات الحجرة ثانية بأطياف جريمته التى ظن انها قد دفنت ، بعد أنانقضى على وقوعها جيل طويل.. وتملأ الرهبةنفس القاتل فيفلت منهالزمام،ويصرخ فىجنون وهويقرع الباب:

ـ افتحوا . اريد أن اعترف . قتلته .الربيبة.الثروة.

وظل يقرع الباب وهو يهذى بهذه الكلمات ؛ حتى فتح الباب .. واقتاده الحراس الى مجلس الحاكم ..

وقبل أن يوجه اليه الحاكم تهمة السرقة التى قبض عليه من أجلها نتيجة لغلطة الاشتباه فى آثار أقدامه التى وجدت على الثلج مفضية من الكنيسة الى منزله، اندفع يروى فى انفعال مثير ، تفاصيل جريمة القتل التى لم يقبض عليه بسببها ؛ ولم يسأله أحد عنها !!

وكان الجزاء .. واستراح الضمير .